الفرج والضيق فى أحلام المصريين

بقلم

نجيب يوسف بدوى

مدرس التربية وعلم النفس

بمعهد المعلمين الابتدائى – بورسعيد

اعتاد المصرى من طول معاناته لعهود الاستبداد التى مرت عليه فى تاريخه الطويل ، أن يرجع الفرج والضيق لأسباب خارجة عن إرادته . ورسخ الاعتقاد فى أنه مسيَّر وليس مخيراً ، وبأنه لا يملك أن يغير من أمره ، وأنه مهما « تجرى جرى الوحوش ، غير رزقك ما تحوش » وأن « قيراط بخت ولا فدان شطارة » وأن « اللى مكتوب على الجبين لازم تشوفوا العين » وكان لهذه الأمثلة وغيرها أثرها المسكّن أو المخدر فى نفوس السواد الأعظم من الكادحين الذين تجملوا بالصبر عن عقيدة فيها تخبيذ للقناعة والرضا بالقسمة والنصيب ، وتسليم بالمقدر والمكتوب . وقد أدى الجهل والحرمان ، وانعدام الوسيلة ، وقلة الحيلة ، وضيق الفرص إلى التماس النتائج من غير أسبابها . ومن مظاهر ذلك : الإذعان للأوهام ، والتطير والتفاؤل من الأحلام ، والاعتقاد فى السحر والحسد ، والاعتقاد فى الحظ والقسمة والبخت والمقدر والنصيب والمكتوب . . . وتستخدم هذه الألفاظ على أنها مترادفة دون تمييز بين الصدفة والمقدر ، بين المطلق والمحتم ، بين الحظ والمكتوب .

والتعلق بأهداب هذه الخرافات ظاهرة اجتماعية تستلفت النظر وتستأهل العناية . ولا ينفرد المصريون بهذه الظاهرة وحدهم ، بل يشترك معهم فيها مجتمعات أخرى : كالمجتمعات الزراعية التى ساعد على غرس هذه المعتقدات فيها اختلاف الفيضان ، وتعاقب الحكام ، وتقلبات الطقس والآفات . والمجتمعات الرعوية التى تتوقف فيها حياة القطيع على العشب والمطر . كما أن للحظ والمصادفة دخلا كبيراً فى حياة الجماعات التى تعيش على الصيد . أما المجتمعات الصناعية ، والمجتمعات الموجهة التى تنظم فيها القوى لخدمة أغراض مرسومة وأهداف محددة ،

والتى تعتمد على الآلة وتستخدم الوسائل العلمية ؛ فلا محل فيها للمصادفة والحظ ؛ ولا تعلق فيها المصائر على المقدر والمكتوب .

وعلى الرغم من مشاركة الكثيرين لنا هذه الرواسب الفكرية ، فإن ظاهرة التواكل وتبرير المتواضع من الجهد المبذول ، وتفسير الفرج والضيق بالغيبيات فى مصر أظهر وذلك لأسباب كثيرة . أولها : أن مصر استهدفت للحكم الأجنبى حقبة طويلة من تاريخها . ولم يكن لأهلها رأى فى نوع الحكومة ، التى غالباً ما كانت تفرض عليهم . وحياة المصريين أكثر ارتباطاً وأشد تأثراً بنوع الحكومة من أى شعب آخر . وفى هذا المعنى قال نابليون : « لا يوجد بين أقطار العالم قطر يتوقف فيه تقدم ورفاهية السكان مباشرة على الحكومة كمصر[١] » وغالباً ما كان موقف المصريين من السلطة والحكام موقفاً سلبياً . ولم تكن ثمرة كدهم لتعود عليهم بقدر ما تعود على الذين يصرفون أقدارهم ويتحكمون فى مصائرهم . وثانيها : إن السواد الأعظم من السكان فى الدلتا والوادى وتحدهما الصحراء من الجانبين . وقد أثرت طبيعة الإقليم فى عقلية السكان : « فنحن فى بلد فيه النور القوى والظل الحاد ، وفيه الجدب والخصب متجاوران ، ومن هنا ما فينا من التفكير بالنقيضين ، كأننا لا نرى من الألوان إلا الأبيض والأسود ، وقد آن أن نروض عقولنا وأعيننا والذوق فينا على أن بين النقيضين درجات ودرجات ! »[٢] وثالثهما : إن السواد الأعظم من الشعب استوى فى طبقة اجتماعية أفقية ، ولم تكن وسائل وفرص الارتقاء الرأسى ميسرة . وبدت هذه الطبقة مغلقة وكأنها مصفحة من أعلى ، بحيث يرتد عنها كل من يهم ليرقى درجات السلم الاجتماعى . أو قل هكذا كان الحال إلى وقت قريب ومن ثم رسخ اعتقاد المصرى فى أنه لا يملك أن يتحكم بإرادته فى مصيره وكأنما كتب المصير على هذا النحو فى لوح القدر . وترك كل ذلك انطباعاً راسخاً فى خلق الشعب لأنه مستمد من ظروف البيئة والتاريخ . وقد امتزجت فى مصر الثقافات ، واختلطت المعتقدات ، ومع ذلك ما تزال سطوة الغيبيات والتعلق بأهداب الخرافات من السمات البارزة فى طابعنا القومى .

* * *

(١) A.E. Crouchley : "The Economic Development of Modern Egypt"; Longmans, 1938. p. 53.

(٢) الدكتور محمد كامل حسين ، من خطاب له فى المجمع اللغوى .

والتطير والتفاؤل من الأحلام ؛ وهو موضوع هذا المقال : هو العامل المشترك بين أغلب التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام ومن يتصفح كتب تفسير الأحلام القديمة ؛ يلمس لأول وهلة هذه الثنائية والازدواج فى نسبة كبيرة من التفسيرات : فأحلام ميمونة . وأحلام مشئومة ! أحلام يستبشرون بها ويتوقعون منها السعد ؛ وأحلام ينقبضون لها ويتوجسون منها الشر . وقد اخترنا من بين الأحلام التنبؤية مجموعة ؛ هى التى يتوقع منها القدماء الفرج أو الضيق ! أى الأحلام التى تبعث على التفاؤل أو تدعو إلى التشاؤم . وهذه الطائفة من الأحلام التى وقع عليها اختيارنا ، يلوح أنه من الممكن إخضاعها لقاعدة عامة فى تأويل دلالة الرموز فيها من ناحية ؛ وفيما تضفيه عليها العامة من قيمة تنبؤية بسعد أو بنحس من ناحية أخرى . وفيما يلى قائمة بهذه الأحلام ، أغلبها منقول عن ابن سيرين(١) وأمام كل مثال رقم الصفحة .

أحلام الفرج	صفحة	أحلام الضيق	صفحة
البكاء فى الحلم . . . . فرج	٢٩٣	الضحك فى الحلم . . . . بكاء وحزن	٢٩٣
الغم فى الحلم . . . . دال على السرور	٢٧٥	الفرح فى الحلم . . . . هو الغم	٢٧٥
الطيران فى الحلم . . . . حظ سعيد ورفعة	٢٨٠	الحلم بالكعك . . . . ضيق	
صعود جبل . . . . نيل رئاسة وشرف عظيم	٢٧٤	السقوط فى الحلم . . . . تغير الأمر وتعذر المراد	٢٧٤
فتح القفل فى الحلم . . . . فرج	٢٧٠	النار المشتعلة . . . . مصيبة أو حرب أو قحط	٢٢٩
الثياب الجدد . . . . صلاح الحال	٣٠٨	الخفاء فى الحلم . . . . عوز وفاقة	
السمك المشوى . . . . رزق واسع	٩٨	أكل التين . . . . ندامة وهم وغم	٢٩٣
الشهد والعسل . . . . رزق كثير	١٠٠	اللحم النيء . . . . ردىء لمن يراه ولا يأكله	٩٧
الملح . . . . يدل على المال	٢٩٤	سقوط السن فى الحلم . . . . وفاة قريب	٦٣
البساط الواسع . . . . سعة الرزق	٢٥٦	صغر البساط ورقته . . . . رقة الحال وضيق المعاش	٢٥٦

هذه أمثلة قليلة لأحلام ميمونة وأخرى مشئومة . وغيرها كثير ، يحتاج جمعه إلى معاودة البحث فى الكتب القديمة لتفسير الأحلام ، والاختيار منها وفقاً لهذا الغرض . ونقدم هذه القائمة لمن يرغب فى محاولة تطبيق مبادئ التحليل النفسى على هذا التراث القديم . وليست هذه الأمثلة فردية وإنما هى من المعتقدات الذائعة الانتشار . وهى أمثلة قديمة درج الناس على الاصطلاح عليها . ولا نعرف تاريخها ولا مصدرها ولا من قال بها قبل ورودها فى كتب تفسير الأحلام القديمة .

(١) « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » لمحمد بن سيرين — دار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

فالرموز الأسطورية فى هذه الأحلام من عداد التراث الميثولوجى الذى توارثناه على مر الأجيال . وبنفس الطريقة التى تفسر بها الأساطير فى ضوء التحليل النفسى ، من الممكن تناول هذه الأحلام وتأويلاتها الأسطورية بالتحليل . وسنختار من بين الأمثلة السالفة الذكر بعض الأحلام لنعيد تأويلها .

١ ــ الحلم بالكعك . . ضيق

قال الصبى لوالده : « حلمت بالأمس أنى آكل كعكاً . » قال الوالد : « هذا الحلم ذو مغزى » ثم أردف مازحاً : « إذا أردت تفسيره ، فاعطنى قرشاً وأنا أفسره لك » قال الصبى : « ما كنت أحلم بالكعك لو أن معى قرشاً ! ! »(١)

يتضح من هذه النادرة أن ضيق ذات اليد هو الدافع إلى الحلم بالكعك . فمن ضاقت ذات يده عن شراء الكعك : وتاقت نفسه إليه ، لم ير الكعك إلا فى المنام . وعلى ذلك فاختيار الرمزية يقوم على أساس سليم . فالكعك رمز للضيق . ونحس جميعاً بمبلغ ما يكابده العامة من ذوى الدخل المحدود من ضيق فى عمل كعك العيد . ومن النساء الرقيقات الحال من يلجأن إلى بيع النحاس القديم أو المصاغ قبيل عيد الفطر ، حتى يتاح لهن عمل الكعك . ومن ثم ارتبط أو اقترن الكعك بالضيق . مثل هذا الترابط بالاقتران يؤدى إلى اكتساب الرمز (أى الكعك) دلالته من الملابسات المحيطة به والتى تكتنفه والتى منها اشتق دلالته . وعلى ذلك يكفى جزء من المثير (أى الرمز وهو الكعك) لأن يستدعى لدى العامة استجابة كاملة للموقف كله وما يقترن به ويكتنفه وهو الضيق . وعلى ذلك لم يأت اختيار دلالة الرمز فى هذا التفسير وليد الصدفة العارضة . وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية أدى إلى اختيارها . هذا عن الرمزية .

أما عن القيمة التنبؤية (أى هل يحق لنا أن نترقب وأن نتوقع الضيق بعد الحلم بالكعك ؟) فيرجع أمرها للمصادفة . وكان هذا التفسير يكون أبلغ وأدق من الوجهة العلمية لو أنه جرى كالمثل القائل : (بأن الجعان يحلم بسوق العيش) أى لو اعتبرنا أن الشعور بالضيق تجسم فى الحلم فى رمز هو الكعك . وعلى ذلك لا يحدث الضيق لأنك حلمت بالكعك ، وإنما حلمت بالكعك لأنك فى ضيق .

(١) منقولة بتصرف عن : W. Stekel : "The Meaning of The Dream Symbolism"; In "An Outline of Psychoanalysis"; edited by J.S. Van Teslaar, Modern Library. p. 167

٢ ــ الضحك فى الحلم . . . بكاء وحزن

يتفق التحليل النفسي لهذا الحلم مع تأويله الشعبى من حيث دلالة الرمز . وباعتبار هذه الدلالة على الدوافع اللاشعورية : لا على القيمة التنبؤية .

وفى تفسير ابن سيرين : « التبسم صالح فإذا خرج إلى القهقهة صار بكاء وحزناً » ص٢٩٣ . وفى موضع آخر ص ٨ : « الضحك فى الحلم ، حزن » وفى هذا المعنى كذلك : « الفرح فى الحلم ، هو الغم » ص٢٧٥ .

وهذا التأويل القديم ذائع الانتشار . وقد ذكرت مارى أرنولد فورستر(١) هذا التأويل : « احلم بالفرح ، واستيقظ للحزن » "Dream of joy and wake to sorrow" كمثال للتفسيرات الشعبية المنتشرة فى الريف الإنجليزى .

ويأخذ فرويد(٢) بطريقة التفسير بالضد : وهى من الطرق الشعبية الواردة فى الكتب القديمة لتفسير الأحلام . ويرى أن هذه الطريقة ممكنة بفضل الإبدال الذى يقوم به الرقيب . ويوضح فرويد قدرة الرقيب على قلب الحالة الوجدانية إلى ضدها ، بمثال لحلم ذكره فيرنزى Ferenczi والحلم لرجل مسن مريض أيقظته زوجته لأنه كان يضحك فى نومه بصوت مرتفع . ويروى الرجل الحلم فيقول : « كنت فى فراشى ، عندما حضر زائر . وأردت أن أضىء النور ، فلم أستطع ذلك . وحاولت ذلك مراراً ، دون جدوى . وقامت زوجتى لتساعدنى ، فلم تستطع هى الأخرى إضاءة النور . فخجلت أمام الضيف . ويئست زوجتى هى الأخرى ، فعادت إلى فراشها . كان هذا مثيراً للضحك ، فاستغرقت فى الضحك حتى أيقظتنى زوجتى » ويؤول فيرنزى الزائر بأنه الموت . والضحك بأنه بديل البكاء والنحيب لفكرة أنه سيموت . وشعلة الحياة هى التى لم يستطع أن يضيئها . وقد أبدل عمل الحلم الفكرة الحزينة عن الموت بمنظر هزلى ، والبكاء إلى ضحك(٣) .

أبدل الرقيب فى هذا المثال ، الحالة الوجدانية فى الحلم إلى ضدها . فالمضمون الكامن بكاء ، أبدله الرقيب فى المضمون الظاهر إلى ضحك . والتأويل

---

(١) Mary Arnold-Forster : "Studies In Dreams"; Allen and Unwin, 1921, p. 118.

(٢) S. Freud : "The Interpretation of Dreams"; Allen and Unwin, 1950, pp. 435-437.

(٣) Freud : Ibid. P. 437.

الشعبى للضحك فى الحلم هو توقع الحزن والبكاء . ومن حيث الطريقة ينبغى أن نتدبر هذه المعادلة :

حيث أن الدلالةالتنبؤية (البكاء) عكس المضمون الصريح (الضحك)

و المضمون الكامن عكس المضمون الصريح

∴ المضمون الكامن = الدلالة التنبؤية

وعلى ذلك فالاحتمال كبير فى بعض التأويلات الشعبية أن تكون الدلالة التنبؤية ، دلالة لاشعورية .

وبالنسبة للتأويل الشعبى للضحك فى الحلم ، ترجع القيمة التنبؤية إلى تكرار الارتباط الشرطى بين هذه الدلالة للرمز وحوادث المصادفة الخارجية . وعلى ذلك : لن تبك أو تحزن لأنك ضحكت فى الحلم ، وإنما ضحكت فى الحلم من شر ما أنت فيه من بلاء .

كذلك ينطبق هذا التفسير للضحك فى الحلم على نظيره وهو : « الفرح فى الحلم . . . هو الغم » ويمكن القول كذلك بأنك لا تغتم لأنك فرحت فى الحلم ، وإنما فرحت فى الحلم لأنك فى هم . ويكفى أن يكون تأويل هذا المثال صحيحاً ، لأن يكون عكسه صحيحاً كذلك . وعكسه هو : « البكاء فى الحلم . . . فرج » ومع هذا فسنحاول تحليل البكاء فى الحلم على قدر ما نستطيع .

٣ ــ البكاء فى الحلم . . . فرج

تنسب الأسطورة المصرية القديمة فيضان النيل إلى الدموع التى تسكبها إيزيس حزناً على زوجها أوزيريس . والأسطورة ، كما يقول يونج بحق ، هى « حلم الشعب » وعندما يأتى الفيضان يعم الفرج والرخاء . وسبب هذا الفرج ، بكاء إيزيس ! وظلت الأسطورة القديمة حية خالدة فى تراثنا الميثولوجى ، وبدت فى تأويل العامة للبكاء فى الحلم بأنه بشير بالفرج .

والبكاء وإن كان تعبيراً عن انفعال الحزن ، إلا أننا أحياناً نبكى من شدة وقع الأنباء السارة المفاجئة . فإذا أتى الفرج فجأة : بكسب ورقة يانصيب ، أو حين تعثر أم على طفلها الضال ، مثل هذه الحوادث والأخبار السارة المفاجئة ، تثير من شدة وقعها البكاء قسراً . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

هجم السرور علىّ حتى أنه من فرط ما قد سرّنى أبكانى

يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين من فرح ومن أحزان

والبكاء فى الحلم تنفيس ؛ وتطهير للنفس . ومثله كمثل وقع التمثيليات المحزنة التى تشاهد على المسرح أو فى السينما ، والتى قد يبكى منها النظارة ؛ ومع هذا يشعرون بعدها بالارتياح . وقديماً قال أرسطو إن وظيفة التراجيدا هى تصريف الانفعالات وتنقية وتطهير النفس . purgation of emotions . فالبكاء فى الحلم تفريغ للأحزان المكبوتة وتطهير للنفس يجعلها فى أحسن الحالات . وأكثرها استعداداً لتقبل الأنباء السارة . أو تكون النفس فى حالة تطلع إلى الفرج ! أو فى حالة من يترقب الأنباء السارة ويتعرف عليها .

يثبت ذلك عكسه : ألا ترى أن من عادة العامة إذا ما ضحكوا ضحكاً طويلاً متصلا ، أن ينبرى أحدهم فيقول : « اللهم اجعله خيراً » حيث أن الإفراط فى الضحك ، يعقبه فيما يلوح رد فعل ؛ أى نكد متوقع . ومن المشاهدات المألوفة كذلك أن ينتهى لعب الأطفال وضحكهم ، بالشجار والبكاء . كما تؤول العامة كذلك الضحك فى الحلم (كما علمنا من المثال السابق) بأنه نذير سوء وعلامة على الحزن والبكاء . فمثل ذلك يقال عن البكاء فى الحلم ؛ يعقبه فرج متوقع فى النهار ، وكأنما لكل فعل رد فعل مساو له ومضاد فى الاتجاه .

والدوافع اللاشعورية للبكاء فى الحلم هى الأحزان المكبوتة ، التى وجدت تنفيساً ومنصرفاً لها فى الحلم . أما القيمة التنبؤية فيمكن تفسيرها فى ضوء الشرطية ومن الممكن — كما هو معروف — تكوين استجابة مكتسبة شرطية شاذة : بالضحك فى موقف مؤلم ، أو البكاء فى موقف سرور . ومن الطريف أن البكاء عند سكان جزر أندمان (فى خليج بنغال شرق الهند) من علامات الفرح ، وطريقتهم فى التحية والسلام هى البكاء ؛ الذى يقابل عندنا المصافحة باليد[1] . وقد رأينا أن البكاء قد يستثار قسراً فى الحوادث السارة المفاجئة . ومن الممكن أن يقترن البكاء بأنباء الفرج ، بنفس الطريقة التى تتكون بها الاستجابة الشرطية الشاذة . مثل هذا الترابط بالاقتران ، يؤدى إلى اكتساب الرمز (وهو البكاء) دلالته من الملابسات السارة المفاجئة الشديدة الواقع . وعلى ذلك يكفى ظهور جزء من المثير (أى الرمز أو البكاء) لأن يستدعى استجابة كاملة للموقف كله

---

(١) ص ٤٩٣ و ٤٩٩ من كتاب :

Chapple and Coon : "Principles of Anthropology"; New York, Holt, 1947.

وما يقترن به فى الخارج من فرج .. ومن ثم اعتبر البكاء رمزاً للفرج . وكلما تكرر اتفاق المصادفة بين هذه الدلالة للرمز والحوادث الخارجية ، زاد الارتباط الشرطى تثبيتاً . وعلى ذلك لم يأت اختيار دلالة الرمز فى هذا الحلم كذلك وليد الصدفة ، وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية أدت إلى اختيارها . وهذه الحتمية باعتبار الدوافع ، لا باعتبار القيمة التنبؤية .

أما عن القيمة التنبؤية (أى هل يأت الفرج) ؛ بعد البكاء فى الحلم ؟ فلا يحق لنا أن ننكر حق من بكى فى الحلم فى توقع الفرج ! وحسبنا أن نقول له : « لن يحدث الفرج لأنك بكيت فى الحلم ، وإنما بكيت فى الحلم من فرط أحزانك الكامنة — وليعوضك الله بفرج من عنده يأتيك » .

قد يبدو للقارئ أن يتساءل كيف تكون دوافع هذين الحلمين : حلم الضحك وحلم البكاء واحدة — هى الأحزان المكبوتة ؟ ولماذا أبدلت هذه الأحزان إلى ضحك فى حلم ، وظلت كما هى بكاء فى حلم آخر؟ .

يلوح أن هذه الظاهرة مألوفة فى الأحلام فأحياناً تظهر الدوافع سافرة فى حلم ، وتتقنع فى حلم آخر . مثال ذلك : الحافز الجنسى ، الذى قد يفصح عن نفسه فى الحلم أحياناً بطريقة صريحة . . . تنتهى بالاحتلام . وأحياناً أخرى تتقنع الرغبة الجنسية فى عمليات رمزية كالطيران فى الحلم .

٤ — السقوط أو الهبوط (من جبل) أو نزول السلالم فى الحلم . . . . تغير الأمر وتعذر المراد .

يتفق التحليل النفسى لهذا الحلم كذلك مع تأويله الشعبى ، من حيث دلالة الرمز ، وباعتبار هذه الدلالة على الدوافع اللاشعورية لا على القيمة التنبؤية . لنترك أصحاب التفسيرات يرونها بأنفسهم : التفسيرات القديمة لأرطميدورس وابن سيرين — والتفسيرات الحديثة لفرويد ، والدكتور القوصى .

يدل نزول السلالم فى أرطميدورس على الهبوط إلى مستوى طغام الناس[1]

وفى تفسير ابن سيرين : « الهبوط من السماء بعد صعودها ذل بعد عز — والهبوط من الجبل يدل على تغير الأمر وتعذر المراد »[2]

أما فرويد فيستبعد احتمال تفسير حلم السقوط (أو حلم الطيران) بالمؤثر

---

(١) « الأحلام » تأليف الدكتور توفيق الطويل ، الناشر مكتبة الآداب ، سنة ١٩٤٥ ص ١٩٩

(٢) « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » ص ٢٧٤ :

الحسى . ولا يقتنع بأن حركة الرئتين فى التنفس أثناء النوم كافية لإثارة حلم السقوط أو حلم الطيران[١] ؛ أو أن ذراع النائم إذا تدلى عن جسمه يمهد لحلم السقوط من ارتفاع[٢] . ويشكو فرويد ندرة المادة التى يستطيع بها تفسير حلمى الطيران والسقوط تفسيراً كاملا ؛ لأنه لم يحلم بهذين الحلمين[٣] . والملاحظة التى يبديها بشأنهما مستخلصة من تحليله لأحلام بعض مرضاه . وهذه الملاحظة هى أن أحلام السقوط والطيران تستدعى انطباعات منذ عهد الطفولة فهى تكرار للأحاسيس التى طربت لها نفس الطفل عند حمله وتدليله بين ذراعى والدته[٤] وتكرار لحوادث السقوط التى مرت فى خبرته . « وغالباً ما تكون أحلام السقوط مصحوبة بحصر . ومن السهل تفسير أحلام النساء بها ، لأنهن دائماً تقريباً يقبلن المعنى الرمزى للسقوط أو الاستسلام للإغراء الجنسى »[٥]

ويقول أستاذنا الدكتور القوصى فى هذا الحلم : « ويحلم الإنسان أحياناً أنه يسقط فى هوة سحيقة لا قرار لها ، ثم يصحو فجأة وهو فى حالة انزعاج شديد . وقد يكون المحتوى الكامن لهذا الحلم هو الخوف من الفشل فى الحياة ، أو السقوط فى أعين الناس ، أو الزلل الخلقى »[٦]

ويتضح من موازنة التأويل الشعبى بالتأويل الحديث أن ما ينسبه التأويل الشعبى للخارج وللمستقبل هو نفسه الدافع الداخلى اللاشعورى . فالدلالة التنبؤية للرمز هى ذاتها الدلالة اللاشعورية . وعلى ذلك : لا تتغير الحال ويتعذر المراد لمن سقط فى الحلم ، وإنما سقوطه فى الحلم تمثيل وتجسيم (للخوف من الفشل فى الحياة ، أو السقوط من أعين الناس . أو الزلل الخلقى) .

وإذا كان السقوط فى الحلم تجسيم لهذه المخاوف ، فهل يمكن القول بأن الصعود فى الحلم تجسيم للرغبة فى الرفعة ؟

٥ — صعود شجرة أو ارتقاء تل أو سلم . . . نيل رياسة أو قضاء المطالب والحاجات

يعتبر التأويل الشعبى هذا الحلم تجسيم للارتقاء والرفعة الذى سيحدث فى

---

(١) S. Freud : "The Interpretation of Dreams"; p. 265

(٢) Freud : Ibid., p. 53.

(٣) Ibid., p. 265.

(٤) Ibid., p. 264.

(٥) Ibid., p. 371.

(٦) « أسس علم النفس » تأليف الدكتور عبد العزيز القوصى ، الناشر مكتبة النهضة ص ٢٩٠

المستقبل ! « فيدل صعود شجرة أو ارتقاء تل عند سكان إفريقيا الوسطى على ارتقاء إلى رياسة أو قيادة أو مستوى أعلى . . . أما عند مفكرى الإسلام فإن صعود السماء نيل رياسة وشرف عظيم ؛ وارتقاء التل ارتفاع وسلطنة مع مشقة ، وكل صعود يراه الإنسان إلى جبل أو عقبة أو تل أو سطح أو غير ذلك ينبئ عن قضاء المطالب والحاجات . ومن صعد جبلا نال عزاً ورفعة وشرفاً . . . إلخ »(١)

ويؤول فرويد(٢) هذا الحلم وفقاً لاتجاهه فى تغليب الناحية الجنسية ، فيرى أن صعود السلالم تعبير عن الجماع فى أغلب الحالات .

أما شتيكل فيدعو إلى التحفظ فى قبول دلالة الرموز إذ لا غنى فى رأيه عن التداعى الحر الذى يمدنا به الحالم . وليس للرموز دلالة ثابتة بل تختلف دلالتها من حالة إلى أخرى(٣) . ويذهب إلى أن لكل شخص رمزية خاصة به تظهر فى أحلامه(٤) . غير أن كتابه لا يشتمل إلا على أحلام المرضى والعصابيين الذين تولى علاجهم . وهو يرى أن العصاب يفصح عن نفسه فى أحلام المريض : « وتنعكس فيها محاولة العصابى البحث عن خلاص من الصراع العقلى »(٥) لذلك يرفض شتيكل تفسير فرويد الجنسى لصعود السلالم فى الحلم . ويروى حلماً كان يتكرر لأحد مرضاه . وفى هذا الحلم كان المريض يحلم بأنه يصعد سلماً ويشعر فى أثناء ذلك بالخوف من السقوط . ويفسر شتيكل السلم بأنه يمثل مراحل فى حياة المريض كل درجة منه تمثل سنة أو مرحلة فى حياته . وخوف المريض من السقوط هو خوف من استعادة ذكريات من مرحلة الطفولة أثناء عملية التحليل(٦) .

وغنى عن القول إننا لسنا بإزاء أحلام صادرة من عصابيين ، ولا أحلام فردية . وليس إلى التداعى الحر ، على تفاصيل الحلم من سبيل . ولكننا بإزاء أحلام شعبية ذات رموز أسطورية قديمة . ونرى أن التأويل الشعبى لمدلول الرمز فى هذا الحلم لا يخلو من مغزى — هذا بعد استبعاد القيمة التنبؤية . وعلى ذلك : لن تنل رياسة أو ترتقى لأنك صعدت فى الحلم ، وإنما صعودك فى الحلم تعبير عن طموحك ، وتمثيل وتجسيم لرغبتك فى الرفعة وتطلعك إلى العلا .

---

(١) « الأحلام » تأليف الدكتور توفيق الطويل — ص ١٩٩ .

(٢) S. Freud : The Interpretation of Dreams, p. 337, 347-360.

(٣) W. Stekel : The Interpretation of Dreams, Liveright, 1943, vol. I p. 308, vol. II 554.

(٤) W. Stekel : Ibid., p. 99. (٥) Ibid., p. 6 (٦) Ibid., vol. II p. 555.

٦ ــ الحلم بالنار المشتعلة . . . مصيبة

ليس لحلم من الأحلام وقع أسوأ مما لهذا الحلم فى نفوس العامة ــ فهم يبالغون فى التطير منه ، ويصيبهم منه ذعر وهلع . وهذا التأويل الذى يبعث على التطير ذائع الانتشار ، وبصفة خاصة عند سكان إفريقيا الوسطى . كما أنه تأويل قديم ، كان معروفاً عند اليونان فى العصور القديمة ، وعند المسلمين فى العصور الوسطى . وقد أورد الدكتور توفيق الطويل فى كتابه « الأحلام » تفسير هذا الحلم ، كنموذج للتشابه فى تعبير الأحلام فى العصور المختلفة ، وبين الشعوب المختلفة : « تدل النار المشتعلة فى الأحلام عند سكان إفريقيا الوسطى على وقوع مصيبة ، وينبئ التهاب عوسج كبير عن وقوع حرب ــ وفى أرطميدورس تدل النار فى السماء على الحرب أو المجاعة والقحط ــ أما عند المسلمين فإن من معانيها الحرب . . . والفتنة ، ومن رأى ناراً أحرقت بعض ثيابه ، أصابته مصيبة أو أدركه بلاء . وربما دلت النار على القحط والوباء أو الجراد »(١)

أشار فرويد إلى هذا الحلم إشارة عابرة فى سطرين يقول : « تأويل الأحلام بالنار يبرر التحذير منذ عهد الطفولة الذى يحرم على الأطفال « اللعب بالنار » حتى لا يبللوا الفراش ليلا »(٢) ويقرر أرنست جونز صراحة أن النار رمز للبول(٣).

وللقارئ أن يتساءل هل هذه الملاحظة هى كل ما يستطيع أن يقدمه العلم لمن أصابه الذعر من جراء هذا الحلم ؟ قد يكون التحذير من نار جهنم وعذاب الآخرة أفعل فى النفوس وبالتالى أدعى إلى إثارة مثل هذا الحلم . وفى تفسير ابن سيرين هذا المعنى : « ربما دلت النار على جهنم نفسها وعلى عذاب الله وربما دلت على الذنوب والآثام والحرام وكل ما يؤدى إليها ويقرب منها من قول أو عمل »(٤)

ويحتمل أن تكون الدلالة التنبؤية ، هى ذاتها دلالة لاشعورية . وعلى ذلك : لا تحدث مصيبة لمن حلم بنار مشتعلة ، وإنما حلم بنار مشتعلة لتوجسه الشر أو لخوفه من العقاب على إثم أو ذنب .

---

(١) « الأحلام » للدكتور توفيق الطويل ــ ص ١٩٨ .

(٢) Freud : Ibid., p. 372.

(٣) Ernest Jones : "Essays In Applied Psycho-Analysis"; Hogarth Press, 1923, p. 178.

(٤) « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » ص ٢٢٩ .

٧ ــ أكل التين فى الحلم . . . ندامة وهم وغم

يفسر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الآية الكريمة : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » بأن التين رمز لآدم ــ والزيتون[1] رمز لنوح ــ وطور سينين رمز لموسى ــ وهذا البلد الأمين رمز لمكة المكرمة أو لدعوة النبى عليه السلام .

والتين رمز لآدم لأنه حين ارتكب المعصية الأولى وأكل من الشجرة المحرمة ، عرفا هو وحواء أنهما عاريان . وسترت حواء عورتها بأوراق شجر التين . وشعر الاثنان بالندامة ، وحلت عليهما النقمة .

هل يستطيع اللاشعور أن يجسم الأفكار المرتبطة بسقطة آدم وهى (الندامة والهم والغم) فى رمز ؟ وهل هناك أنسب من التين كرمز مجسم لفكرة الندامة ؟ وبذلك يكون المضمون الكامن للحلم فكرة الندامة ، والمضمون الصريح له أكل التين . والتأويل الشعبى لا يخلو من فراسة . إلا أن دلالة الرمز التنبؤية فى الخارج ، هى دلالة لاشعورية فى الداخل . وعلى ذلك : لا تأتى الندامة لأنك أكلت التين فى الحلم ، وإنما أكلت التين فى الحلم من وطأة الندم .

ولا يشترط أن يكون كل حلم بأكل التين تعبيراً رمزياً عن الندامة ــ ما لم تكن العلاقة بينهما معروفة بحيث يفيد منها اللاشعور . ونكرر القول بأننا لا نتناول أحلاماً فردية وإنما نتناول تأويلات شعبية ذات رموز أسطورية . وفى هذا الحلم نحاول أن نجيب على هذا السؤال : لماذا اختار القدماء التين بالذات رمزاً للندامة ؟ وقد أرجعنا أصول الحتمية إلى الديانة ذاتها . فلم يأت اختيار القدماء لدلالة الرمز وليد المصادفة . والقول بأن أكل التين فى الحلم تجسيم لفكرة الندامة يقضى التسليم بإمكان تكوين رموز متشابهة لدى أفراد مختلفين . أو التسليم بوجود « لا شعور جمعى » يشترك فيه الناس جميعاً . الفرض الأول وهو إمكان ظهور رموز متشابهة لدى أفراد مختلفين يستند إلى مبدأ (وحدة العقل البشرى) وينبغى أن نضيف إلى هذا المبدأ وحدة اللاشعور كذلك (فليس أكثر من اللاشعور بين أفراد البشر جميعاً) الفرض الثانى ليونج وهو وجود « لا شعور جمعى » يمكن اعتباره امتداداً متطرفاً للفرض الأول .

---

(١) يرى الأستاذ عباس محمود العقاد أن الزيتون رمز للسيد المسيح . « عبقرية المسيح » كتاب اليوم ــ يناير سنة ١٩٥٣ ص ٨ ، ٩ .

٨ ــ إذا حلمت بـ (حرامى) . . . فسيحضر لك ضيف[١]

يرجع فرويد[٢] أصول الحلم باللص إلى مرحلة الطفولة الأولى . ويرى أن اللص فى الحلم رمز للأب الذى كثيراً ما كان يوقظ الطفل من نومه ليذهب به إلى دورة المياه حتى لا يبلل فراشه ! أو الذى كان يرفع الغطاء عنه أثناء نومه ليتأكد من موضع يديه !

أما تفسيرنا فيتخذ من الدلالة الشعبية للرمز نقطة البدء . فمن الممكن أن يكون اللص فى الحلم رمزاً للضيف . فالموقف بإزاء الضيف موقف مزدوج متناقض ambivalent والمبالغة فى إظهار الكرم الحاتمى للضيف قد تكون تعويضاً عن نزعات الكراهية والتقتير المكبوتة . وفى الأمثلة العامية ، والشعوذة ، وفلتات اللسان ما يؤيد حقيقة هذا الموقف المزدوج المتناقض بإزاء الضيف . والدوافع اللاشعورية للحلم باللص هى الكراهية المكبوتة للضيف . وفى الحلم يظهر الضيف فى صورة تنكرية رمزية هى صورة اللص . ويبدل الرقيب الضيف باللص فى الحلم حتى تجد انفعالات الكراهية المكبوتة لها منصرفاً . من ذلك تتضح الحتمية السيكولوجية فى اختيار دلالة الرمز فى هذا التفسير الشعبى .

أما عن القيمة التنبؤية التى يضفيها الخرافيون من العامة على الحلم (بالحرامى) فيجعلونه نذيراً بحضور ضيف ، فيمكن تفسيرها فى ضوء الشرطية . ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بحضور الضيف عقب الحلم باللص ، يؤدى إلى أن يصبح اللص فى الحلم رمزاً مقترناً بالضيف ، ومنبهاً شرطياً يتوقع معه حضوره . وعلى ذلك لا يحضر الضيف لأنك حلمت باللص ، وإنما حلمت باللص لأنه حضر لك ضيف من قبل .

٩ ــ الحفاء فى الحلم[٣] . . . عوز وفاقة

يقبل حلم الحفاء التأويل على مذاهب شتى . فقد يمهد لهذا الحلم منبه حسى ! كأن ينكشف الغطاء عن القدمين أثناء النوم .

---

(١) انظر تأويل هذا الحلم بالتفصيل فى مقالنا : (تأويل شعبى لحلم تنبؤى » فى مجلة علم النفس عدد أكتوبر سنة ١٩٥٠ مجلد ٦ .

(٢) Freud : Ibid., p. 380.

(٣) انظر « حلم الحفاء » فى مجلة علم النفس عدد فبراير سنة ١٩٥٢ مجلد ٧ .

ويؤول فرويد حلم العرى (والحفاء عرى جزئى) بأنه من أحلام العرض . ودوافعه رغبة طفلية مكبوتة فى عرض الجسم أو أجزاء منه عارية .

وإذا اصطنعنا طريقة أدلر ، بدا حلم الحفاء معبراً بطريقة مجسمة عن « عقدة النقص » فالموظف الذى يحلم أنه يذهب إلى مقر عمله حافياً ، أو السيدة التى حلمت بأنها ذهبت إلى حفلة ساهرة فى ثوب للسهرة وأقدامها عارية ! تصور أحلامها هذه بطريقة مسرحية شعورهم بالقصور .

وإذا اصطنعنا طريقة يونج فى تفسير حلم الحفاء ، كان البحث عن نظائر لهذا الحلم فى الديانات والأساطير متمشياً مع منهجه . وقد ورد فى التوراة ، فى سفر دانيال حلم للملك بختنصر يشبه حلم الحفاء . حلم هذا الملك بتمثال رأسه من ذهب وأقدامه من طين . وقد يكون الحفاء فى الحلم كأقدام التمثال من طين ، كلاهما من « النماذج الأولية البدائية — Archetypes » ومن نتاج اللاشعور الجمعى .

أما التأويل الشعبى لحلم الحفاء ، فيبعث على التطير ، ودلالته العوز والفاقة . مثل هذه الدلالة المستقبلة فى الخارج ، قد تكون ذات مغزى لاشعورى فى الداخل ، بمعنى أنه : لا يحدث العوز والفاقة لمن حفى فى الحلم ، وإنما حفى فى الحلم لشعوره بالنقص ، أو لرقة حاله ، أو لخوفه من العوز أو الفاقة .

١٠ — سقوط السن فى الحلم[1] . . . . وفاة قريب

قد يمهد لهذا الحلم مؤثر حسى : كألم فى الأسنان ، أو طعم الملح فى الفم نتيجة الإكثار من أكل الجبن الحادق ، كما حدث فى حلمين لكاتب هذا المقال . غير أن الحلم ظاهرة نفسية ، ويكشف تحليله عن معان تفوق فى دلالتها المعنى الذى ينطوى عليه مجرد النظر إلى طبيعة المؤثر الحسى .

وفى التأويل الشعبى ينبئ خلع السن أو سقوطه فى الحلم عن وفاة قريب . وهذا التأويل قديم إذ كان معروفاً منذ عهد أرطميدورس اليونانى فى القرن الثانى للميلاد . كما أنه من المعتقدات الذائعة الانتشار بين سكان إفريقيا الوسطى . وكان معروفاً كذلك عند المسلمين فى العصور الوسطى ، وله نص فى تفسير ابن سيرين وقد وجد الأستاذ سليجمان أن فقدان الأسنان يؤول فى كل مكان تقريباً ، بمعنى فقدان قريب أو صديق .

---

(١) انظر « فقدان الأسنان فى الأحلام فى مجلة علم النفس ، عدد أكتوبر سنة ١٩٥٢ مجلد ٨ .

ويذهب فرويد إلى تأويل فقدان السن فى الحلم تأويلا جنسياً . « فالقوة الدافعة لهذه الأحلام عند الرجال إن هى إلا رغبات المراهقة فى الاستمناء » ويؤول شتيكل خلع شخص آخر السن فى الحلم من فم الحالم . بالإخصاء . ويرى يونج أن حلم النساء بفقدان الأسنان له مغزى أحلام الوضع . ويؤيده فى ذلك أرنست جونز .

وقد ساهمنا بتفسير جديد لهذا الحلم . على أساس استعارة وظيفة خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين ، من ميدان الأنثروبولوجيا . وتطبيقها على هذا الحلم . ويحقق خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين عند الأستراليين القدماء وعند البانتو وظيفتان : أولهما القيمة السحرية للسن . فالسن بمثابة (الأثر تنطق بالتاء) الذى يحتفظ به شيوخ القبيلة ليتحكموا به فى مصير الفتى . والوظيفة الثانية التى تحققها هذه العادة هى الربط الشرطى بين التابو وخلع السن . بحيث تكفل هذه الخبرة المؤلمة عدم خرق التابو . وهاتان الوظيفتان تحققهما عادة خلع السن للسلطة الضابطة فى القبيلة .

وإذا استعرنا وظيفة هذه العادة البدائية ، وطبقناها على الحلم . بدا سقوط السن فى الحلم وكأنه تحقيق لرغبة الذات العليا وإفصاح عن القوى الكابتة للعقل . وكما أن عادة خلع السن فى طقوس تنصيب المراهقين تحقق غرضاً للسلطة الضابطة فى القبيلة ، كذلك يعبر سقوط السن فى الحلم عن وطأة الذات العليا ، التى تستمد كيانها من المصادر الثابتة للسلطة فى المجتمع . فسقوط السن فى الحلم نجم عن القمع والزجر من الذات العليا التى امتصت خصائص السلطة وأسقطتها على الذات . فالذات العليا تعاقب الذات (الأنا) فى هذا الحلم . بخلع السن وتعاقبها لأنها انتهكت حرمة التابو (أو ما يقابل التابو فى مجتمعنا الحديث من النواهى الخلقية والمحرمات التقليدية) أو تعاقبها على نزعاتها العدوانية أو على تمنياتها اللاشعورية الشريرة للغير .

ومحك صدق هذا التفسير هو صلاحيته للتطبيق على التأويل الشعبى ؛ هذا التأويل القديم ، الذائع الانتشار الذى يمكن اعتباره من عداد الأساطير ، ويبدو أن هناك حتمية فى اختيار دلالة الرمز فى هذا الحلم بأنها وفاة قريب . وتتضح الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الميثولوجى إذا علمنا أن له نظيراً فى أوهام العصابيين . فوفاة قريب ترجع فى وسوسة العصابى المصاب بالعصاب القهرى ،

إلى أنه انتهك حرمة التابو . فإذا سمع هذا العصابى بنبأ وفاة أحد أقاربه : تسلط عليه تأنيب وسواسى بأنه كان سبباً فى وفاته ؛ لأنه لم يلتزم المحظورات والتحريمات القهرية التى فرضها على نفسه . وإشفاق العصابى من وفاة قريب هو بمثابة تعويض عن الرغبة اللاشعورية السابقة فى موته . وهذه الرغبة اللاشعورية فى موته القريب ؛ نتيجة للموقف المزدوج المتناقض حيال الأقارب . وهو الموقف الذى يوجد بدرجات متفاوتة ، فى استعداد الناس جميعاً .

وحيث أن خرق التابو لدى المصاب بالعصاب القهرى : وفاة قريب .

وأن دلالة سقوط السن فى الحلم فى التأويل الميثولوجى : وفاة قريب .

∴ سقوط السن فى الحلم : خرق التابو : وفاة قريب .

ومن هنا كان الاحتمال كبيراً فى أن يكون تفسيرنا للحلم . باعتباره تحقيقاً لرغبة الذات العليا ؛ صحيح . فالذات العليا تعاقب الذات فى الحلم بخلع السن لأنها انتهكت حرمة التابو أو ما يقابل التابو فى مجتمعنا الحديث من النواحى الخلقية والمحرمات التقليدية . . . الأمر الذى يترتب عليه — من وجهة نظر العصابى — وفاة قريب . وإشفاق العصابى من موت القريب ، إذا هو خرق التابو ، هو تعويض عن الرغبة اللاشعورية السابقة فى موته . وعلى ذلك : لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن ، وإنما حلمت بسقوط السن لتمنياتك اللاشعورية القديمة لقريب بالموت . وبذلك تتضح الحتمية السيكولوجية فى اختيار دلالة الرمز فى هذا التأويل .

أما الدلالة التنبؤية فيمكن تفسيرها فى ضوء الشرطية . ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بوفاة أحد الأقارب بعد الحلم بسقوط السن ، يؤدى إلى أن يصبح سقوط السن فى الحلم رمزاً مقترناً بوفاة قريب ، ومنبهاً شرطياً ينذر بذلك ويبعث على التطير . ويؤدى تكرار المصادفة إلى تثبيت هذه الاستجابة الشرطية .

* * *

وإذا وضعنا النتائج التى استخلصناها من تحليل الأمثلة السابقة جنباً إلى جنب ، بدت فى صيغة واحدة على النحو الآتى :

(١) الحلم بالكعك . . . ضيق

لا يحدث الضيق لأنك حلمت بالكعك . وإنما حلمت بالكعك لأنك فى ضيق .

(٢) الضحك فى الحلم . . . بكاء وحزن

لن تبكى أو تحزن لأنك ضحكت فى الحلم . وإنما ضحكت فى الحلم من شر ما أنت فيه من بلاء .

(٣) البكاء فى الحلم . . . فرج

لن يحدث الفرج لأنك بكيت فى الحلم ، وإنما بكيت فى الحلم من فرط أحزانك الكامنة .

(٤) السقوط فى الحلم . . . تغير الأمر وتعذر المراد

لا تتغير الحال ويتعذر المراد لمن سقط فى الحلم ، وإنما سقوطه فى الحلم تجسيم (للخوف من الفشل فى الحياة ، أو السقوط من أعين الناس ، أو الزلل الخلقى)

(٥) صعود شجرة أو ارتقاء تل أو سلم . . . نيل رياسة أو قضاء المطالب والحاجات .

لن تنل رياسة أو ترتقى لأنك صعدت فى الحلم ، وإنما صعودك فى الحلم تعبير عن طموحك ، وتمثيل وتجسيم لرغبتك فى الرفعة وتطلعك إلى العلا .

(٦) الحلم بالنار المشتعلة . . . مصيبة .

لا تحدث مصيبة لمن حلم بنار مشتعلة ، وإنما حلم بنار مشتعلة لتوجسه الشر أو لخوفه من العقاب على إثم أو ذنب

(٧) أكل التين فى الحلم . . . ندامة وهم وغم

لا تأتى الندامة لأنك أكلت التين فى الحلم ، وإنما أكلت التين فى الحلم من وطأة الندم .

(٨) إذا حلمت بـ (حرامى) . . . فسيحضر لك ضيف

لا يحضر الضيف لأنك حلمت باللص ، وإنما حلمت باللص لأنه حضر لك ضيف .

(٩) الحفاء فى الحلم . . . عوز وفاقة

لا يحدث العوز والفاقة لمن حفى فى الحلم ، وإنما حفى فى الحلم لشعوره بالنقص أو لرقة حال أصله ، أو لخوفه من العوز والفاقة .

(١٠) فقدان السن فى الحلم . . . وفاة قريب

لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن ، وإنما حلمت بسقوط السن

لتمنياتك اللاشعورية السابقة لتقريب بالموت .

ويمكن إضافة الرموز والمنبهات الداخلية التى تبعث على التطير والتى تبدو فى : اختلاج العين . والأكال فى راحة اليد أو فى بطن القدم . وطنين الأذن . . . وللميمنى من كل منها لدى المتطيرين توقعات . وللميسرى توقعات أخرى . وهذه التوقعات يمكن تفسيرها فى ضوء الشرطية(١) . كما أن للاختلاج والأكال دوافع لاشعورية(٢) وإذا أضفنا هذه الرموز والمنبهات الداخلية إلى الأمثلة السابقة . بدت فى نفس صيغتها وسنكتفى بذكر مثالين منها :

رف العين اليمين . . . . شر

لا يحدث الشر لأن عينك اليمين (رفت) ؛ وإنما (رفت) عينك اليمين لتوجسك الشر .

الأكال فى راحة اليد اليمنى . . . قبض نقود

لا تأتى النقود لأن المتطير شعر بأكال فى راحة يده اليمنى ، وإنما شعر بهذا الأكال لحاجته إلى نقود . أو لترقبه وصولها .

لم تأت هذه التفسيرات وفقاً لفكرة سابقة . ولم تصب فى قالب صيغ لها مقدماً كالقالب الذى صيغت فيه نظرية جيمس — لانج المعروفة ! وإنما هى وليدة التحليل . تحليل كل مثال على حدة . فى وقته .

واتفاق نتائج تحليل هذه الأمثلة فى صيغة واحدة ، يستخلص منه قاعدة عامة من حيث الطريقة ، تستحق أن يتدبرها من يحاول تطبيقها على التفسيرات الشعبية الأخرى ليتبين مدى صحتها . وهذه القاعدة أو النصيحة هى : ابحث فى احتمال أن تكون الدلالة التنبؤية . فى التفسيرات الشعبية . دلالة لاشعورية . فالمخبأ فى الغيب فى الخارج لا يهبط على النفس فى الحلم من الخارج ، وإنما دوافع الحلم اللاشعور فى الداخل . وهذه الدوافع اللاشعورية إما رغبات أو مخاوف . وما يبدو من تحقق التوقعات فى الخارج . يرجع للمصادفة . وبقاء التأويل الشعبى ، قدمه وتأصله فى التاريخ ، وذيوعه وانتشاره ، يرجع للارتباط الشرطى بين الرمز

---

(١) راجع تفسيرنا للتطير على أساس الفعل المنعكس الشرطى فى مقال : « اختبار للتطير » فى مجلة علم النفس عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ مجلد ٥ .

(٢) « سيكوباتولوجيا السحر والتطير » فى مجلة علم النفس عدد يونيو سنة ١٩٥١ مجلد ٧ ص ٥٣ — ٥٥ .

وحوادث المصادفة الخارجية . ودوافع أحلام الضيق — أى الأحلام التى تؤول بدلالة رديئة فى الخارج — دوافعها المخاوف ودوافع أحلام الفرح . الرغبات .

وتحليل هذه الأحلام ذات الرموز الأسطورية . والرموز والمنبهات الداخلية التى تبدو فى الاختلاج والأكال . واستخلاص القاعدة السالفة الذكر . يكفل الاستقرار لمشكلة هامة تتعلق بحيرة الرمز فى الحلقة المفرغة بين النظرة الغيبية والنظر السيكوتحليلية . حيرة الرمز بين الشرطية والدوافع اللاشعورية . حيرة الرمز بين المصادفة والحتمية ؛ حيرته بين الخارج والداخل بين المستقبل والماضى . النظرة الغيبية فى التأويلات الشعبية ؛ تضفى على الرمز دلالة تنبؤ بالمستقبل . والنظرة السيكوتحليلية تقضى بأن الحتمية فى الدوافع اللاشعورية الداخلية ؛ وهذه جذورها فى الماضى .

والنظرة الغيبية القائلة بأن للأحلام دلالة تنبؤية تستند إلى أساس فى التفكير الصوفى الذى يرى إمكان وقوع العلم بالغيب فى الحلم . وتوضح الفقرات المقتبسة التالية هذا الاتجاه الصوفى فى تصور الرؤيا وتعليلها . وهى منقولة من كتاب الدكتور توفيق الطويل : « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام »

« يذهب ابن سينا إلى القول بأن الأحداث منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى ؛ وفى وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية . فيقع لهم هذا أثناء نومهم » . ص ٧٧ « . . . واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى . لانكشفت فيها صور الأولى ؛ إلا إذا قام بينهما حجاب . وليست المرآة الثانية إلا القلب . والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا فى اليقظة ؛ أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ؛ وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ . وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول ؛ فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها . زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه » ص ٧٣

وهذا التصور الصوفى لكيفية وقوع العلم بالغيب فى الحلم ؛ على عكس طبوغرافية فرويد وعلى عكس نظرية التحليل النفسى عن الأحلام : فمصدر الأحلام غير هابط من علٍ . وإنما دوافعها لاشعورية ؛ لاتسقط على النفس من الخارج ، وإنما تنبعث من الداخل ؛ لاتشير إلى المستقبل ؛ وإنما جذورها فى الماضى . وقد كان لهذا التفكير الصوفى القديم صداه فى التأويلات الشعبية

للأحلام ، تأويلات تجعل الحتمية فى القيمة التنبؤية فى الخارج . وتجهل الدوافع الداخلية . أما التحليل النفسى والتأويل العلمى فيظهرنا على أن الحتمية سيكولوجية . هى فى الدوافع اللاشعورية الداخلية . وجذورها فى الماضى . أما المصادفة الحقيقية فتبدو فى الخارج وفيما عساه يحدث أو لا يحدث فى المستقبل . وهذه القيمة التنبؤية التى يضفيها العامة على الرموز ترجع إلى الارتباطات الشرطية بين الرمز وحوادث المصادفة الخارجية .

* * *

بقيت كلمة عن الطريقة : كان مفتاح تأويلنا لهذه الأحلام ، فحص التفسيرات الشعبية لها ، عسى أن يكون لهذه التفسيرات القديمة الذائعة الانتشار بعض المغزى . إذ أن فى بقاء هذه التفسيرات وذيوعها ، ما يحملنا على الاهتمام بها . ويحول بيننا وبين استبعادها بافتراض أنها بقايا survivals فقدت وظيفتها . أو بتعبير آخر جعلنا رائدنا الطريقة الوظيفية فى الأنثروبولوجيا التى لا تسلم بوجود البقايا ، والتى ترى أن أى أداة من أدوات الحضارة المادية ، وأى نظام من النظم الاجتماعية أو أى أسطورة أو خرافة ، لم تبق فى الحضارة التى اشتملت عليها ما لم تكن لها وظيفة . معنى ذلك أننا نرفض أن نستبعد هذه التفسيرات — أو طائفة خاصة منها على الأقل — بافتراض أنها خرافات . ونرى أن التحليل الوظيفى لبعض هذه التفسيرات ، يكشف عما بينها وبين المعتقدات القديمة من علاقات . كما يكشف التحليل النفسى لها عما فى رموزها من حتمية ودلالة لا شعورية . أما القيمة التنبؤية للرموز ، فتفسرها الشرطية .

وقد فرضت علينا طبيعة موضوع البحث ، الاعتماد على تأويل دلالة الرموز ، بدون التداعى الحر . على حين أن فرويد وشتيكل يستخدمان التداعى الحر ويسترشدان بتأويل مدلول الرمز . لذلك نرى أن نحدد موقفنا من كل من شتيكل وفرويد لنبين مواضع الاختلاف بيننا وبينهما فى الطريقة وفى النتائج .

يستخدم شتيكل (التحليل الوظيفى للحلم) استخداما مغايراً لاستخدامنا لهذا التعبير . فهو يقصد بالتحليل الوظيفى أن الحلم يكشف عن طبيعة الصراع العقلى للعصابى . وكل الأحلام التى قام بتحليلها فى كتابه : تفسير الأحلام ، لحالات عصابية . ويتبين شتيكل أن لكل مرض نفسانى أحلام ذات طابع خاص تتم عليه . كما يكشف — الحلم الأول بصفة خاصة . والأحلام التالية أثناء العلاج

بالتحليل النفسى عن موقف العصابى حيال مشكلته النفسية وما يعانية من صراع عقلى ، وموقفه من المحلل . ومن عملية التحليل . أما نحن فنقصد بالتحليل الوظيفى للحلم التنبؤى تحليله فى ضوء العلاقات بين رمز الحلم وتأويله الشعبى وما يقابلهما فى المعتقدات السائدة فى المجتمع . مثال ذلك : العلاقة بين البكاء فى الحلم واعتباره بشيراً بالفرج . وأسطورة دموع إيزيس وفيضان النيل ! والعلاقة بين الحلم بالتين ، والآية القرآنية الكريمة. والعلاقة بين الحناء فى الحلم . (وأقدام التمثال من طين) الواردة فى التوراة . وبين الكعك فى الحلم . والضيق الذى تعانية من جرائه الطبقة الكادحة . . . هذا فضلا عن عوامل البيئة والتاريخ التى ذكرناها فى مقدمة هذا البحث .

وعلى الرغم من أننا نأخذ بطريقة فرويد ومبادئه ، فإننا نفترق عنه فى موضعين : إذ أننا نرى منذ البداية أنه إذا كانت مبادئ التحليل النفسى تطبق على الأساطير فمن الممكن استخدام هذه المبادئ كذلك فى تفسير التأويلات الأسطورية لرموز الأحلام . وقد عنى فرويد وتلاميذه بدراسة الأساطير فى ضوء التحليل النفسى ، فكيف أغفل فرويد هذه التأويلات الشعبية ؟ من غير المعقول ألا يكون على علم بها ، وهو الذى أشار إلى طريقة التأويل بالضد التى كانت متبعة فى الكتب القديمة لتفسير الأحلام . وهى الطريقة التى أخذ بها والتى اعتبرها مظهراً من مظاهر القلب الذى يقوم به الرقيب . من المرجح أنه استبعد هذه التأويلات الشعبية لأنها تشير إلى المستقبل . ولكن هذه القيمة التنبؤية يمكن تفسيرها فى ضوء الشرطية . ولم يأت ذكر الشرطية فى كتابات فرويد — فيما نعلم — وعلى ذلك فهناك وجهان للاختلاف بيننا وبين فرويد : فعلى الرغم من عناية فرويد بدراسة الأساطير ، فإنه يستبعد التأويلات الشعبية للأحلام ، كما أنه لم يرد فى كتاباته ذكر للشرطية . أما نحن فنرى أن هناك حتمية سيكولوجية فى اختيار دلالة الرموز فى بعض التأويلات الشعبية ، ونسب القيمة التنبؤية إلى الارتباطات الشرطية بين دلالة الرموز وحوادث المصادفة الخارجية .

وها نحن قد رأينا أن بعض التفسيرات الميثولوجية لأحلام الفرج وأحلام الضيق ، التى استبعدت بافتراض أنها خرافات عقيمة ، أو رواسب فكرية أو بقايا فقدت وظيفتها . من الممكن إخضاعها لقاعدة وهى :

١ — إن هناك احتمال فى أن تكون الدلالة التنبؤية ، فى بعض التأويلات

الشعبية ، هى ذاتها الدلالة اللاشعورية .

٢ — وإن أحلام الضيق دوافعها المخاوف . وأحلام الفرج دوافعها الرغبات .

٣ — وإن القيمة التنبؤية تفسرها الشرطية .

وما كانت هذه التفسيرات الميثولوجية لتبقى على وجه الزمان . وتتناقلها الأجيال . وما كانت لتذاع وتنتشر لو لم تكن لها دوافع لاشعورية ، ولو لم ترتبط الرموز فى الأحلام ارتباطاً شرطياً مع دلالاتها المستقبلة . لذلك فإننا ندعو إلى العودة على هذا التراث الميثولوجى الحافل ، لفحصه وإخضاعه للتحليل الوظيفى والتحليل النفسى لاستخلاص ما فيه من دلالة ومغزى . ولنا عود على تطبيق القاعدة السالفة الذكر على طائفة من الأحلام التى تؤول بالضد .

نجيب يوسف بدوى

مراجع :

1. S. Freud : "The Interpretation of Dreams"; Allen & Unwin, 1950.
2. W. Stekel : "The Interpretation of Dreams"; New York, Liveright, 1943, 2 vols.
3. Mary Arnold-Forster : "Studies In Dreams"; Allen & Unwin, 1921.

(٤) « منتخب الكلام فى تفسير الأحلام » محمد بن سيرين — دار الطباعة الخديوية ، ببولاق — سنة ١٢٨٤ هـ

(٥) « الأحلام » تأليف الدكتور توفيق الطويل . الناشر مكتبة الآداب بدرب الجماميز ، سنة ١٩٤٥ م .

(٦) « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » تأليف الدكتور توفيق الطويل — مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية سنة ١٩٤٥ .